

تاريخ القات في اليمن من خلال مخطوط عثمانى مكتوب سنة 1888م

ترجمة وتعليق : الدكتور محمود الحاج قاسم محمد

باحث في تاريخ الطب العربي الإسلامي

طبيب أطفال / الموصل - العراق

مقدمة المترجم حول المخطوط :

يمثل هذا البحث جزءاً من تقرير طبي كتبته هيئة مؤلفة من ثلاثة أطباء كلفت من قبل السلطان عبد الحميد الثاني (الذي حكم 1876 - 1909) بزيارة خمس من الولايات العثمانية ابتداءً من سنة 1887 ولمدة ثلاث سنوات ونيف وهذه الولايات هي (طرابلس الغرب¹ ، بنغازي ، الحجاز ، اليمن ، بغداد). ولأجل إعطاء فكرة موجزة عن التقرير نقتطف بعض الفقرات من مقدمة رئيس الهيئة الطبية التي كتبت التقرير وهو الدكتور عبد الحكيم حكمت (والذي كان في زمانه أستاذاً بكلية الطب في استنبول وعضواً في الجمعية الطبية العثمانية ورائداً في الجيش) ، يقول الدكتور عبد الحكيم حكمت ((اقتضت الإرادة السنية أن تقوم هيئة صحية بجولة في الولايات العربية وإجراء مسح طبي شامل فيها . وهذه الولايات هي طرابلس الغرب وبنغازي والحجاز واليمن وبغداد ، وذلك خلال ثلاث سنوات ونيف من التحريات والبحث والاستقصاء لدراسة كل جوانب هذا الموضوع بالغ الأهمية)) . ((ويسرنا أن نرفع تقريرنا هذا على هيئة كتاب سميناه (استكشافات طبية) وهو يعني (دراسات طبية) ولعله من الجدير أن نذكر خلفيات هذه المهمة والهيئة المذكورة ، حيث وردت إلى كلية الطب مراسلات تتضمن استفساراً من الإرادة السنية حول طرائق العلاج المحلي في الولايات العربية ، وكذلك تطلب تفصيلات عن الحالة الصحية ومسحاً للأمراض المنتشرة وعوامل انتشارها في كل ولاية على حدة)) . ((وقد قسمنا كتابنا هذا إلى قسمين :

الأول : حول المسح الطبي وسميناه الطبوغرافيا الطبية لهذه الولايات .

الثاني : لمحات عن الطب العربي المطبق في هذه الولايات وإبراز جوانبه التاريخية والاجتماعية والعلمية وقد تناولنا وصف الطبوغرافيا الطبية لكل ولاية على حدة ، وهذه تشمل جغرافية الإقليم ، جيولوجية الأرض ، المياه ، الحرارة ، الرياح ، المساكن ، الملابس ، الغذاء ، البنية الجسمية ، مزاج السكان ، العادات ، الحرف ، الأمراض المنتشرة ، مكان وهيئة المقابر . وحيث أن طرق العلاج التي يزاولها الأطباء العرب في مختلف هذه

¹ - قام صديقنا الدكتور عبد الكريم أبو شويرب بترجمة الجزء المتعلق ولايات طرابلس وبنغازي ونشره باسم الطب الشعبي في ليبيا وصدر الكتاب سنة 1989 ، وله الفضل في تحفيزنا لترجمة بقية الأجزاء التي أتمناها ، وإن شاء الله سوف تصدرها مجتمعة بكتاب في المستقبل .

الولايات المذكورة هي طرائق متشابهة لذا رأينا من المناسب جمعها في قسم واحد وسردها دون تمييز وتجنب التكرار ما أمكن . كما راعينا منتهى الدقة والعناية عند جمع المعلومات وتدوين المشاهدات المختلفة خلال هذه المهمة حتى تكون الدراسة على أتم ما يكون من الصحة والحقيقة ((.

نقول أن ما جاء في التقرير مصداقاً لما ذكر في المقدمة فقد تناول التقرير ثلاث مسائل مهمة هي :
الأولى : الأمراض المنتشرة .

الثانية : العوامل والعادات التي تساعد على انتشار الأمراض .

الثالثة : طرق العلاج وأنواع الأدوية المحلية .

وبذلك أعطى التقرير صورة واضحة المعالم لأوجه الحياة الاجتماعية في المنطقة العربية ، وتأثير ذلك على صحة الإنسان ، كما حوى التقرير حالات مرضية وطرق علاجها ، وسرد لبعض القصص التي شاهدها الهيئة عن كتب وإشارات لبعض الروايات من المرضى .

كل ذلك جاء بشكل واضح وأسلوب سهل وكلام علمي موزون يدل على خبرة الهيئة الطبية العالية ورأيها المعتدل وملاحظاتها الدقيقة المتعمقة في كل حالة تصادفها ، فلا نرى أي نقد لاذع لطريقة علاجية من طرق العلاج الشعبي ، بل يحاول التقرير دائماً إيجاد المبررات لعدم استعمال الوسائل الأخرى من الطب.

وصف المخطوط :

لم يتيسر لنا مشاهدة المخطوط ، ننقل هذا الوصف عن الأستاذ عبد الكريم أبو شويرب حيث يقول :
((لهذا المخطوط نسخة واحدة فقط ، وهي في مكتبة جامعة استنبول وقد آلت إليها ضمن مجموعة كتب ومخطوطات حولت من مكتبات القصور (مكتبة قصر يلدز) والتي أهديت للسلطان عبد الحميد كنسخة واحدة فقط ، والمخطوط في حالة جيدة وتجليد مزخرف وعليه الطغراء المعروفة والحروف الذهبية .
أحجام الصفحات : 21 × 28 سم ، وتوجد هوامش أو حواشي أو تعليقات أو رسوم .
الخط : نسخ عادي مقروء .

عدد الصفحات : 470 صفحة ، 10 أسطر في كل صفحة))².

ونضيف القول بأن رقم المخطوط هو (4320) . وأنا اعتمدنا في إعداد هذا البحث على الصورة المستنسخة بالميكروفيلم ، وقمنا بترجمة الجزء المتعلق بولاية اليمن من المخطوط ونشرناه في مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية - جامعة قطر (العدد 9 / السنة 9 / 1997) تحت عنوان ((المسح الجغرافي - الطبي لولاية اليمن سنة 1304 هـ / 1888 م)) وقد جاء عدد صفحات هذا الجزء في المخطوط (71 صفحة) .
تاريخ زيارة الفريق الطبي لليمن : دليلاً بأن زيارة الهيئة لليمن كانت سنة 1304 هـ / 1888 م هو ما يلي:
يقول الدكتور عبد الكريم أبو شويرب : ((جاءت هذه البعثة طرابلس سنة 1305 هـ / 1887 م وزارت عدة

² - حكمت ، الدكتور عبد الحكيم : الطب الشعبي في ليبيا - ترجمة الدكتور عبد الكريم أبو شويرب . إصدار مركز دراسة جهاد الليبيين 1989 ، ص 15 .

مناطق في ولايتي طرابلس وبنغازي وتركت لنا وثيقة لدى مكتبة المحفوظات وعليها ختم الطبيب عبد الحكيم حكمت ورفيقه عباس وهي شهادة لطبيب شعبي بأنه كفاء³ .

وبناءً على ما جاء في الجزء المتعلق بولاية بغداد من التقرير أن الهيئة قد عايشت موجة وباء الكوليرا في بغداد سنة 1305 رومية / 1889 م .

وجاء في الصفحة الأخيرة من المخطوط ((بأنه بفضل الله تم كتابة هذا الكتاب في شهر أيلول من سنة 1306 رومية)) وهو يقابل 1890 م .

لذا نستنتج مما سبق كله بأن بداية المسح الطبي للولايات الخمس كانت طرابلس ونهايتها بغداد وأن زيارة الهيئة لولايتي الحجاز واليمن كانت خلال 1304 رومية / 1888 م وإذا أخذنا التسلسل الذي ذكر في التقرير بنظر الاعتبار تكون زيارة اليمن بعد الحجاز .

النص المترجم والمتعلق بالقات

يقول التقرير الذي كتبه الدكتور عبد الحكيم حكمت والذي جاء في الجزء المتعلق بولاية اليمن

القات : في علم النبات سلالة هذا النبات من فصيلة ما يسمى (عرفية الرهبان) ، وهو شجرة خالدة وهو النبات الذي يطلق عليه (جلاسكروب أدوليس) . طول هذا النبات من 2 - 4 م ، أوراقه بيضوية وحوافها مسننة وطولها 2 - 7 عشير زراعي وعرضها 1 - 4 عشير زراعي .

القات الذي ينبت في اليمن على نوعين ، يطلق على أحدهما (القات الأسود) والآخر (القات الأبيض) ، ومع كونهم من جنس نباتي واحد إلا أنهم يفرقون ببعض الأوصاف وعلى الشكل التالي :

القات الأسود : أوراقه خضراء غامقة ولماعة وساقه وأغصانه سمراء مائلة للاحمرار .

القات الأبيض : أوراقه أصغر وأطول وألوانها خضراء كاشفة وأغصانه مغطاة بغبار خفيف ذي لون أبيض . من هذين النوعين القات الأسود أكثر انتشاراً واستعمالاً والقات الأبيض أكثر انتشاراً واستعمالاً . وحسب إهداء الأهالي ، عندما يلاك القات الأبيض بمقدار كاف يهدي إلى السكر ، بينما القات الأسود ليس له هذه الخاصية .

الأوراق التوجيهية للقات الأسود بيضاء مصفرة بينما القات الأبيض صفراء غامقة وأصغر . الأوراق التوجيهية للقات خماسية وقمعية الشكل والأغصان التذكيرية متعاقبة والمبيض سائب وعريض ومندمج بقرص ذي خمسة مواضع ويحوي بيضتين جانبيتين ، إبرتها قصيرة وعضو التأنيث قصير والثمار جافة والحبوب مخفية وكثيرة السويداء .

ينمو القات في الغالب في حقول القهوة ثلاث أو أربع مرات في السنة . بعد قطعها يقوم الأهالي بمضغها وبلع مائها وبعد نصف ساعة يرمون بقاياها .

³ - المصدر نفسه : ص 12 .

شروط إنبات القات : تشبه شروط إنبات القهوة ، وعلى الأغلب يزرع في حقول القهوة وفي البساتين هنا وهناك في أماكن جيدة الحفظ .

أهالي اليمن حريصون ومدمنون على القات لدرجة أن أكثرهم يصرفون ما لا يقل عن سبع أو ثمان ساعات خلال الأربعة والعشرين ساعة في مضغ القات . الأغنياء منهم يخصصون في دورهم محلات خاصة لمضغ القات يسمونها (مبرز أو مفرح) ، يزينون تلك المحلات بأحسن الزينة والأثاث . في النهار صباحاً حتى الساعة الثالثة وفي الليل أيضاً بعد الطعام حتى الساعة الثامنة يجتمع الأحاباب في المبرز يمضغون في جهة وفي الجبهة الثانية يشربون القشر فيستأنسون . وهناك الكثير من الأهالي ممن يستهلكون في اليوم أربعين أو ستين أو مائة قرش أو أكثر من القات . وأكثر ما يقدمونه من الكرم عند قدوم ضيف هو أن يقدموا له حزمة أو حزمتين من القات مع إبريق مملوء من القشر المطبوخ .

وهناك من يبيع القات في الطرقات .

تأثير القات على الجسم : إن تأثيراته الفسلجية غير معلومة ، إلا أن منعه النوم أكثر من القهوة أمر محقق ، وتأثيراته الأخرى أيضاً من المحتمل تشبه القهوة . قمت شخصياً بإجراء التجارب مرات عديدة وبمقادير وشروط مختلفة ، لم أشاهد تأثيراً بيناً للقات سوى قلة النوم وقليلاً من عدم الشهية . ولو نظرنا إلى أقوال أهل اليمن فإنهم يؤكدون بأن القات يزيد في العطش لذا تجدهم يشربون الماء بنهم شديد ، ومع ذلك فإن في تركيب القات مادة قابضة مما يجعل الذين يمضغونه في حالة إمساك مستمر .

ويفهم من كلام العرب بأن القات الأبيض يؤدي إلى نوع من السكر والخدر . وهكذا فإن مسألة كون القات يقلل ويمنع النوم والشهية أمر محتم لأن ذلك يفهم من التجارب منذ القديم ، حيث كانوا قديماً يطلقون على القات (قات الصالحين) لأن الأوائل التاركين للعالم وللدنيا منهم والمنزوين في المغارات كانت أقاتهم اليومية مقداراً من القات مع كمية من الماء ، وبذلك كانوا يمتنعون عن النوم ويتحملون الرياضة والمقاومة .

ولاتصافه بهاتين الصفتين هناك احتمال مجيء لفظة القات من (القوت) . ومع مرور الأيام قام الأهالي بتقليد أهل الصلاح بشكل أعمى حتى أصبح استعمال القات الآن عادة عمت الجميع كما أظن .

هناك احتمال إمكانية استخلاص مادة مؤثرة من أوراق القات شبيهة بالكوكايين . إنتهى قول الدكتور عبد الحكيم حكمت .

((**الجدور التاريخية للقات في مصدر يماني حديث :** تعود ظاهرة استهلاك القات واستخدامه كمادة مكيفة ومنشطة إلى القرن الثاني عشر الميلادي ، وقد ظل تعاطيه مقصوراً في البداية على فئات محدودة في المجتمع ، وهي فئات السادة والقضاء والفقهاء والتجار وكبار الملاك ورجال الدولة ، ولم تتعاطاه الطبقات الوسطى إلا في القرن الثامن عشر ، بعد أن انتهى جدل التحليل و التحريم حول كونه حلالاً لا حراماً واستمد مشروعيته من قواعد دينية / أخلاقية أبعدته بعداً كاملاً عن المخدرات والممنوعات .

وقد كان لقصيدة السيد " عبد الله بن يحيى شرف الدين " (المتوفى عام 973 هجرية) أثرها الواضح في الترويج للقات ، مكانة قائلها في ذلك الزمان ، فقد أضافت القصيدة على القات مزيداً من الشرعية. يقول الشاعر

" شرف الدين " في هذه القصيدة :

أدر غصون بواقيت من القات زير جديات أوراق و ريقات
أما ترى قلم الرحمن خط على ألواح أوراقه رسم الجلالات

وقد ظل انتشار القات بطيئاً جداً حتى أوائل القرن العشرين حين أخذت زراعته في الإنتشار وعم أكثر المناطق في اليمن . على أن استهلاكه ظل - مع ذلك - مقتصرًا على الفئات والشرائح العليا والوسطى في المجتمع . أما الفئات والشرائح الدنيا فلم تتعاطاه إلا في أيام الرخص. فأسعار القات كانت مرتفعة قياساً بأسعار السلع والخدمات الأخرى.))⁴

الاستنتاج : على الرغم من تحفظنا لما جاء في هذه الفقرة وعدم موافقتنا لما جاء في النص اليمني الحديث ، إلا أننا ذكرنا ذلك لتبيان أوجه الاختلاف بين ما جاء في المصدر الحديث والتقارير المترجم والتي يمكن إيجازها بما يلي :

- 1- يقول المصدر اليمني بأن القات (مادة مكيفة ومنشطة) بينما يؤكد التقرير الطبي العثماني بأن (القات الأسود أكثر انتشاراً واستعمالاً ، وحسب إدعاء الأهالي عندما يلاك القات الأبيض بمقدار كاف يؤدي إلى السكر ، بينما القات الأسود ليس له هذه الخاصية) وفي موضع آخر يقول (ويفهم من كلام العرب بأن القات الأبيض يؤدي إلى نوع من السكر والخدر . وهكذا فإن مسألة كون القات يقلل ويمنع النوم والشهية أمر محتتم لأن ذلك يفهم من التجارب منذ القديم)
- 2- يقول المصدر الحديث (وقد ظل انتشار القات بطيئاً جداً حتى أوائل القرن العشرين) بينما يؤكد التقرير العثماني بأنه في سنة 1888 م (أهالي اليمن حريصون ومدمنون على القات)

موجز البحث :

تاريخ القات في اليمن

من خلال مخطوط عثماني مكتوب سنة 1888م

ترجمة وتعليق : الدكتور محمود الحاج قاسم محمد

البحث جزء من تقرير طبي باللغة التركية العثمانية كتبته هيئة طبية كلفت من قبل السلطان عبد الحميد الثاني بزيارة خمس من الولايات العثمانية (طرابلس الغرب ، بنغازي ، الحجاز ، اليمن ، بغداد) خلال السنوات (1887 - 1890 م) . وجاء التقرير على هيئة كتاب سموه (استكشافات طبية) وقسم الكتاب إلى قسمين
بيحث :

((الأول : حول المسح الطبي وسموه الطبوغرافيا الطبي لهذه الولايات تناولوا فيه كل ولاية من الولايات من الناحية الجغرافية ، جيولوجية الأرض ، المياه ، الحرارة ، الرياح ، المساكن ، الملابس ، الغذاء ، البنية الجسمية ، مزاج السكان ، العادات ، الحرف ، مكان وهيئة المقابر ، الأمراض المنتشرة .
الثاني : لمحات عن الطب العربي المطبق ، وجاء في التقرير ، حيث أن طرق العلاج التي يزاولها الأطباء العرب في مختلف هذه الولايات هي طرائق متشابهة لذا رأينا من المناسب جمعها في قسم واحد وسردها دون تمييز وتجنب التكرار ما أمكن)) .

وقمنا بترجمة الجزء المتعلق بولاية اليمن من المخطوط ونشرناه في مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية - جامعة قطر (العدد 9 / السنة 9 / 1997) تحت عنوان ((المسح الجغرافي - الطبي لولاية اليمن سنة 1304 هـ / 1888 م)) وقد اعتمدنا في ترجمة الجزء المتعلق بولاية اليمن على الصورة المستنسخة بالميكروفيلم لمخطوط الكتاب المذكور (المرقم 4320) والموجود في مكتبة جامعة استنبول .
وهنا في هذا البحث نقدم ترجمة لما جاء في المخطوط عن القات .